المحاضرة 04:

أشكال القصيدة الجزائرية المعاصرة:

القصيدة العمودية

تمهيد:

قديما مرت قصيدة الشعر العمودي بمراحل مختلفة، عكست تصورات نقدية متنوعة، ابتدأت بتنظيرات ابن طباطبا، والآمدي، والجرجاني، وانتهت عند المرزوقي في شكل بيان أوجز عبره آراء من سبقه من نقاد، واكتنز فيه الخصائص البنوية والجمالية لقصيدة الشعر العمودي، أو ما يعرف بنظرية عمود الشعر القديمة:

- عيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفَهْم الثاقب.
- عيار اللفظ هو الطبع والرِّواية والاستعمال.
- عيار الإصابة في الوصف هو الذكاء وحسن التمييز.
- عيار المقاربة في التشبيه هو الفطنة وحسن التقدير.
- عيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن هو الطبع واللسان.
- عيار الاستعارة هو الذهن والفطنة.
- عيار مشاكلة اللفظ للمعنى واقتضائها للقافية هو طول الدُّربة ودوام المدارسة.

أما حديثا، فقد تناول عدد من النقاد ظاهرة قصيدة العمود الشعري بالفحص والتنقيب، منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، عبد الله الغذامي، محيي الدين صبحي، توفيق الزيدي، ومحمد بن مريسي الحارثي الذي تتبع بالنقد المفهوم والأصول، وفق تقسيمات احتوت مادة الشعر، والعناصر الصياغية، والوحدة المعنوية، مؤكدا أن المعالجة لمفهوم عمود الشعر لا تتم إلا عبر هذه المباحث التي تناولت المعنى والمبنى ووحدة الموضوع[1]، مرجعا وفقها عناصر العمود الشعري إلى ثلاثة تصورات، هي:

أ- العناصر التكوينية؛ وهي المتصلة بمادة الشعر، يحققها شرف المعنى وصحته.

---

[1]- **محمد بن مريسي الحارثي، *عمود الشعر العربي: النشأة والمفهوم*، نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ - 1996م، ص253.**

ب- العناصر الصياغية؛ وهي المتمثلة في جزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما.

ج- الربطة الموضوعية؛ وهي المتصلة بالوحدة المعنوية في النص الشعري، الممثل في البعد التلاحمي، كما اشترطه المرزوقي بنصه: التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن.

القصيدة العمودية عند جيل الرواد في الشعر الجزائري المعاصر:

يقول الشاعر "مفدي زكريا" في قصيدته "اقرأ كتابك": **(الكامل)**

وقل: الجزائر، واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركّعا
إنّ الجزائر في الوجود رسالة الشعب حرّرها، والربّ وقّعا
إنّ الجزائر قطعة قدسيّة في الكون، لحّنها الرصاص ووقّعا
وقصيدة أزليّة، أبياتها حمراء، كان لها (نفمبر) مطلعا[2]

يتميز أسلوبه بالمتانة نظرا لتأثره الشديد بالقرآن الكريم، والتراث العربي قديمه وحديثه، فيما ظهرت صوره واقعية بأنماطها الحسية كالبلاغية، والإشارية المكثفة أو المفصلة؛ لأنها ترصد قضايا الوطن والشعب في مواجهة المستعمر، لكن هذا كله لم يمنعه من التنويع في إطار الصور التخييلية ذات الطابع الإيحائي، أو المتصنعة للمثل، أو الرمز[3]، وهو ما نستشفه في قصيدته "الذبيح الصاعد": **(الخفيف)**

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان، يتلو النشيدا
باسم الثغر، كالملائكة أو كالـ طفل، يستقبل الصباح الجديدا
شامخا أنفه، جلالا وتيها رافعا رأسه، يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل، زغردت تمـ ـلأ من لحنها الفضاء البعيدا[4]

---

[2]- **مفدي زكرياء، *ديوان اللهب المقدس*، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 2007م، ص51- 52.**

[3]- **محمد ناصر بوحجام، *أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925- 1976)*، المطبعة العربية، غرداية- الجزائر، ط1، 1992م، ص206- 321.**

[4]- **مفدي زكرياء، *ديوان اللهب المقدس*، ص17.**

وبما أن زكرياء شاعر ثوري، طالما كان ملتزما بالتعبير عن الحرية، العدالة، والوحدة، فقد عانى من استبداد المستعمر ما جعل السجن بيته نظرا لطول مقامه فيه، لكن لم يفت من عزمه القهر ولا التعذيب، فاستمر ينشد حلمه بالاستقلال عبر قصائد حماسية مشتعلة، شكلت محركا قويا للثورة، ونقمة على المستعمر[5]، من ذلك قصيدته "زنزانة العذاب رقم 73": **(البسيط)**

سيّان عنديَ، مفتوح ومنغلق ... يا سجن، بابك، أم شدت به الحلق؟
أم السياط، به الجلاد يلهبني؟ ... أم خازن النار، يكويني فأصطفق
يا سجن، ما أنت؟ لا أخشاك، ... من يحذق البحر، لا يحدق به الغرق
إني بلوتك في ضيق، وفي سعة ... وذقت كأسك، لا حقد ولا حنق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة ... هيهات يدركها، أيان تنزلق
تنساب في ملكوت الله سابحة ... لا الفجر، إن لاح، يفشيها ولا الغسق[6]

عند جيل ما بعد الاستقلال:

واصل الشعراء الجزائريون كتابة القصيدة على النمط العمودي، ولكنهم حاولوا أن يبعثوا نفسا جديدا في جسد القصيدة خاصة في جانب اللغة والصور المجازية التي أضحت أكثر حيوية وملاءمة لروح العصر، خاصة عند شعراء مثل مصطفى الغماري، ويتضح ذلك في قصيدته "مأواك في الغاب":

مأواك في الغاب يا موال يؤنسني ويزرع النور في جفني بستانا
فامسح الدمع .. غذتني منابعه حيناً، وبرعمت منها الطهر أحياناً
كم عشت في الحزن يهواني واعشقه حتى تنفس مثل الفجر إيماناً
سافرت فيه وكان الزاد في سفري معاً كبرنا، وما شاخت حنايانا
وفي غدي نلتقي شوقاً بمزرعتي، فكراً تفتح آيات وقرآناً
ونسبق الحلم نبنيه، ونصنعه وتشرب القرية الخضراء سقياناً
أرى صلاتي على الأطفال وادعة، على الربا، في ربيع العمر نيساناً
وأنت يا وطني، والله، ملء دمي فغن يا لحن يخضوضر جناحانا

---

[5]- **نسيب نشاوي، *مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر*، ص358- 359.**

[6]- **مفدي زكرياء، *ديوان اللهب المقدس*، ص373- 374.**

يتضح مما سبق كيف توسع الغماري» في التعامل مع المجاز اللغوي وكيف باتت العلاقة التي يقيمها بين ألفاظه تمنحه المقدرة على الابتعاد الكلي عن التعبير التقليدي المباشر، فإن الألفاظ والجمل في المقطوعتين السابقتين لا تعطينا مدلولاً وصفياً مجازياً دقيقاً نقف عنده وقد وضعنا أيدينا على المعنى الذي يريد أن يصل إليه الشاعر، لأن اللغة التي اعتمدها الشاعر تفتح أمامنا آفاقاً لا متناهية من الرمز والإيحاء، إنها طريقة تذكرنا بشعر جماعة أبولو التي تثير في النفس أحلاماً ورؤى وأحاسيس مبهمة تنتقل بنا إلى أودية خيالية بعيدة تبعث بها ذكريات بعيدة، أو تخلق علاقات بين أشياء قد تبدو غريبة[7].

[7]- **ينظر، محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص 331.**